REVUE PSYchologie- علم النفس
ISSN : 1111-2468
N°25, 2018

الحكواتي ...ذاكرة لها صوت

الحكاية، أمشاهو والتهويدة قطع من الذاكرة تنتقل على لسان شخص

جلود سعدية[1]

ملخص:

تهدف المداخلة إلى إبراز مكانة الحكواتي والحكاية الشعبية وترانيم المهد في حفظ ذاكرة شعب ما لعقود من الزمن، إنها أداة فنية أصيلة تمر عبر جماليتها ورمزيتها ذاكرة كاملة من البطولات والانتصارات وكذا الإخفاقات والمواضيع المحظورة علنا من خلال صيغ مستساغة محبوبة لدى الصغار قبل الكبار.

إن الحكاية و ترنيمة المهد (التهويدة) تحمل ذاكرة من التراث المعنوي الذي لا نجده في سواها ، فهي تعبير فني جميل غير جلي عن الذاكرة التي تُنقل بين ثنايا الترنيمات والحكايا من شخص لآخر عن طريق سياقات الترميز.

والحكواتي مخزن للذاكرة الشعبية وهو سد منيع تتكسر عند حصونه محاولات الذاكرة الفنية للانفلات والانسياب عبر ثغرات الزمن، و صوته مَعبَر مبجل لنقل هذه الذاكرة من جيل لآخر، فحكاياته نسيج من التحويل والبناء لأحداث عاشها شعب في زمن ما ليساعد المتلقي- وإن لم يقصد في طرحه أكثر من إمتاع المستمع- على إرصان معالمه النفسية، الممنوع، المسموح، الجيد، السيئ....فالحكاية تحمل في طياتها كلا من البعدين الجماعي من جهة و الفردي من جهة أخرى فهي تراث جماعي بناه مجموعة من الأفراد إذ تشكل حلقة وصل بين الذاكرة الجماعية والذاكرة الفردية فتساهم كل منهما في بناء و تشكيل الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الحكواتي، الحكاية، التهويدة، الذاكرة، قصة حياة.

[1]طالبة دكتوراه، جامعة الجزائر2 ، أخصائية نفسانية، مركز المساعدة النفسية، سيدي موسى/ sadiadjl@yahoo.fr

Le conteneur… la mémoire a un son : Le conte, Amachahou et la berceuse :

Fragments de mémoire transmis par la voix d'une personne.

Résumé:

Le but de l'intervention est de mettre en évidence le statut du conteur, le conte populaire et les berceuses en préservant la mémoire d'un peuple pendant des décennies, c'est un outil artistique authentique qui passe par sa beauté et son symbolisme tout un souvenir de victoires, d'échecs et de sujets qui sont interdits à travers des formules acceptées et aimées par les enfants et les adultes.

Le conte et la berceuse portent un souvenir du patrimoine moral ce que nous ne trouvons pas ailleurs, c'est une belle expression artistique qui porte la mémoire qui est transférée entre les plis de chansons et d'histoires d'une personne à l'autre à travers des contextes de symbolisation.

Le conteur est un entrepôt de la mémoire populaire, et un barrage impénétrable, ses fortifications brisent les tentatives de la mémoire de s'échapper et de couler à travers les lacunes du temps, sa voix est un pont pour transmettre ces souvenirs d'une génération à l'autre, ses histoires sont tissées à partir de la transformation et de la construction des événements vécus par un peuple. Afin d'aider le destinataire à élaborer ses repères psychologiques: l'interdit, l'admissible, le bon et le mauvais ....

L'histoire porte à la fois des dimensions collectives et individuelles, c'est un patrimoine collectif construit par un groupe d'individus, formant un lien entre la mémoire collective et la mémoire individuelle, chacun contribuant à la construction et à la formation de l'autre.

Mots-clés: conte, conteur, berceuse, mémoire, histoire de vie.

The container … memory has a sound: The tale Amachahou and the lullaby:

Memory fragments transmitted by the voice of a person.

Abstract:

The aim of the present communication is to illustrate the status of the storyteller and the importance of folk tales and the lullabies (cradlesongs)in keeping the memory of people during decades; it is an original artistic tool that keeps thru its beauty and symbolism; whole memories of victories and success of people, as well as failures and banned subjects publicly, but nicely formulated and loved by youngsters before adults.

Tales and lullabies carry symbolic memory that does not exist elsewhere. They are an artistic beautiful expression of transmission of heritage from one to another thru encoding symbolic context.

The storyteller is the folk memory store and prevents the attempt to break it, further; he transmits it from generations to generations. His tales are knitted from transformations and constructions of events that had lived a whole population (however, it is not his intention, it is just to entertain his listener) to help the listener elaborate his psychological references: the forbidden, allowed, good, bad…The tale carries both the collective dimensions on the one hand, and on the other hand, the individual ones. It is a collective heritage constructed by a group of persons; hence it is the link between collective memories and individual ones, and each one contributes in building and making one another.

Key words: storyteller, tale, lullabies, memory, life story.

"معْلوم فيَام زمان ماكان الانسان يكتب بلقلامْ، كانوا العُقَال يخمموا تخمامْ، ينسجوا من لخيال حكايات و وهامْ، نظْموها في كْلامْ، حفظوها الفُهَامْ و خلاوها ورث من جيال لجيالْ سعْد اللي روى و فهم كلام لكبارْ. نبداو لكلام و نقولوا اسمعونا يا سادة يا كرام و تبعوا معانا سحر لكْلام عندنا هدف و غاية نعطيوْ الحكمة بالحكاية". بمثل هذه الديباجة يُعلَنُ عن افتتاح حلقة الحكواتي...

هذا المقال الذي بين أيدينا هو رحلة خاطفة في كم موروث ذكروي شعبي حُفظَ على ألسنة أشخاص اُصطُلح على تسميتهم ب: الحكواتية، المداحين أو القوالة بلهجتنا الجزائرية، من خلال التنقيب في ذاكراتهم الفردية عن الانتماء، عن الهوية، عن القيمة، عن المعنى...

الزمن مرادف للحياة، و الحياة فاقدة لروحها من دون الكلمات (les paroles) و الذاكرة بدورها لصيقة بالزمن و بالخبرة الحياتية، و لا انفصال لها عن الكلمة. فالتجربة الحياتية لمجتمع ما هي فسحة زمنية تسمح لمجموع الأفراد بخلق جملة من الخبرات المتراكمة، تبدأ بما خلف أسلافهم و تطلق العنان لنفسها لصنع تاريخ خاص بهم و تشكيل مرجعية جماعية عن منظومة قيمهم ، عن قاموس معاني الأشياء التي يعيشونها، لتتشكل رويدا رويدا ذاكرة جماعية تصير مَعلَما للأفراد يُهرعون إليه كلما عجزت فردانيتهم عن فهم و خلق معان و وضع كلمات عن معاشاتهم وتصير إرثا للوافدين بعدهم.

إننا – نحن سكان المغرب العربي– جماعات تستعمل القول (اللفظ) بدل الحرف فنحن جماعات لاتزال على قيد الشفاهية، ماجعل القسم الأكبر من ذاكرتنا الجماعية المعنوية ذاكرة شفهية تعتمد في بنائها و انتقالها على اللغة الأم، لتصير لهجاتنا حاوية وحاملة لهذا الكم الذكروي و ناقلة له عن طريق ألسن أشخاص وسيطين و رابطين بين الأزمنة هم الحكواتية.

الحكواتي هو أحيانا الجدة الحانية التي تجَمَع أحفادها فوق الحصير أو الشيخ كثير الخبرة واسع التدبير، و أحيانا هو شخص تفرغ للحكاية وجعلها طريقا عليه يسير. و الحكاية – كما يصفها أحد الحكواتية الذين التقينا بما خطت أيديهم– هي المتحف الخيالي للذاكرة، و الحكواتي هو حارس المتحف و المرشد الذي يأخذنا كل مرة في رحلة زمنية عبر ممرات الذاكرة و أنفاقها ليُشبع غريزة الفضول الإنساني و طلب المعرفة التي تسكن أغوارنا و

تطلب الترضية دائما. رحلة نستدل عليها بعبارات مثل: كان يا مكان في قْديمْ الزمان، روح يا زمان و أرواح يا زمان..و غيرها و التي تُحيلنا إلى المسافة الزمنية البعيدة (la distance temporelle) الفاصلة بيننا و بين أحداث و شخوص الحكاية، لكن في نفس الوقت تلك اللغة الأمومية الحانية، اللهجة و نبرة الصوت المتفاوتة تُشعرنا بقرب المسافة العاطفية بيننا و بينهم (la distance affective) ، إذ سرعان ما نتخلى عن حياديتنا كمستمعين سلبيين لنتخذ لنا صفا نقف فيه، نشجعه و ندافع عنه، نغضب إذا ظُلم، تُؤلمنا مواجعه و تُسعدنا مسراته..نحو سياقات تقمص لاشعوري لتلك الشخوص.

لقاءاتنا مع بعض الحكواتيين الجزائريين و قضاء بعض الوقت معهم جَلاَ أمام عيوننا وظيفة الحكواتي، أدواره و العلاقة الوطيدة بينه و بين الذاكرة، و كيف أمكن لذاكرته الفردية أن تتدخل في توجهه و اختياره أن يكون حاميا و حاملا و تُرجمانا للذاكرة الجماعية، ما كتب في هذا المقال هو تحليل لمحتوى تلك المقابلات و إعادة قراءة لها.

الحكواتي – في نظر أهل هذا الفن– وظيفة أُمومية لما حُملت من معاني الحماية و الاحتواء..هو كالأم التي تُسرب لطفلها معاني الأشياء عبر كلمات دافئة و هادفة. فالحكواتي و عن طريق سرده لحكاياه التي هي إحدى أهم تجليات الذاكرة هو لسان حال المستمع فمن خلال لجوءه العفوي والسلس إلى منظومات القيم و الرموز المُخْتزنة في أنماط التفكير والتعبير يمكنه ملامسة كل العواطف التي تُخالج الفرد من خوف، قلق، غضب، حزن و حماسة...و إعطاء معنى و تأويل لها داخل الحكاية.

أجمع الحكواتية الذين التقيناهم أنهم يلجؤون للحكايا كمواضيع وسيطية (des objets médiateurs) في خدمة المستمع بسبب فعاليتها الرمزية وقدرتها على حصر و نقل تظاهرات النفس البشرية باعتبار الحكاية مثيرة للولادة و الموت، للاختيار، للمغامرة، للأخطار، للحياة، الرغبة و العقاب. يقول أحدهم: "كنت كي نخاف نهرب عند ميمتي و هي تحاجيني يروح الخوف ونرقد، ماكنتش نفهم كي كنت صغير بصح كنت نحس بلامان، دوك كي كبرت و فهمت لمعاني حبيت الناس تحس بلامان في صوتي"

هناك من أخبرنا أن اختيار فن الحكواتي جاء صدفة، لكن الصدفة كانت موجهة بمخزون كبير من الذكريات الجميلة و تاريخ من التقمصات لشخصيات من الذاكرة الفردية (الأم، الجدة أو الجارة المسنة)، و هناك من كان

سبب اختياره للحكايا سببا مختلفا، يقول ***ماحي صديق*** أن الخوف هو من جعله يكون حكواتيا في سنوات الجمر و الرصاص حين استوطن الخوف دواخل الناس و انسحبت الألسن مختبئة داخل الأفواه و صارت الكلمات مُغيبة يقول: " كنا صحاب نتلمو على الخمسة تاع لعشية فالشارع باش نحكيو و حنا خايفين على الوضع تاعنا، و بلا شعور مني لقيت روحي نحكي فحكايات حكاتهالي يما و أنا صغير، كي شغل هربت ليما باش تحميني، بالنسبة ليا لحكاية كانت العودة ليما (le retour a ma mère)، حكيت للتسلية برك و لقيت الحلقة كل يوم تكبر و تكبر و الناس الخايفين خرجو يسمعوا و بلا مانشعرو قاومنا الغول و غلبنا الغول والحكاية بكامل واش رفدت من معاني كانت مُنقذ لينا". من هذه التجربة فكر ***ماحي صديق*** أن هذه هي مهمته، إيصال هذا الإرث للأطفال و بناء ملاجئ في دواخلهم يمكنهم الاستعانة بها في وقت الحاجة.

وعن الأثر عند المستمع المتلقي (l'impact) تقول الحكواتية ***فايزة*** إن أكثر ما يشدها و يرضيها في حكاياتها هو تنشيط ذاكرة الأشخاص والعودة بهم إلى طفولتهم من خلال إمدادهم بسند لهم و إشراكهم في هذه الرحلة الذكروية.. "رجعتينا لياامات زمان و لعادات زمان"، "فكرتينا بعوايدنا وتقاليدنا" كلمات تتكرر على مسامعها عند كل لقاء...

هي ذي سيدة تجاوزت السبعين من عمرها تُكمل للحكواتية الجزء الناقص من أغنية شعبية، الجزء الذي سقط من الزمن لكنه لم يسقط من ذاكرتها، تدندنه و الدموع في عينيها لما أعاده من ذكريات لأشخاص وأحداث و زمن جميل عندما كانت في عمر أحفادها الذين رافقتهم اليوم ليسمعوا الحكايا. فالحكايات و الدندنات كالذكريات ليس لها تاريخ نهاية صلاحية.

ورجل آخر من جمهور المستمعين يأتي كل سنة بأطفاله لمهرجان الحكاية طالبا و مُصرا على حكاية "بقرة ليتامى" حتى و إن لم تكن مبرمجة لما يجده فيها من عزاء له و لهم بعد رحيل أمهم.

إن العمل الأنبل للحكواتي هو جعل الآخر يحلم من خلال خلق مساحات جديدة للذاكرة عن طريق الخيال الذي سُخر لينتج الواقع ... الحكواتي شخص نضُج نفسيا حتى صارت لديه مرونة كبيرة في القفز بين الأزمنة، في النكوص بسمع المتلقي إلى ماض ضارب في التاريخ و العودة به إلى الحاضر و مرافقته نحو إسقاطات

مستقبلية، هو رفيق في طريق النُضج من خلال خلق فضاءات للتقمصات الايجابية، للدعم، للتفكير، لإيجاد معنى و البحث عن حلول نحو ارصان معاشاتنا اليومية.

يتعاظم دور الحكواتي في زمن خَرُسَت فيه الكلمة و فقدت الكثير من قيمتها و انقطعت فيه حبال التواصل بين الغائبين و القادمين و صار الحاضرون مكتفين بالصمت...بهيأته المهيبة لباسه الذي تفوح منه رائحة الذاكرة و التقاليد، لهجته العامية المُهذبة، نبرة صوته الموزونة و حركات جسده يروي عطش المستمع، فضوله و حيرته بمعان جديدة إذ يسرب عبر حكاياته التي تُعد تداعيات للذاكرة شبكات قراءة جديدة للحياة. يقع على عاتقه خلق و الحفاظ على أسطورة المكان، فلكل مكان أساطيره و الفرد محتاج لتلك الأساطير ليرتبط عاطفيا بمحيطه، ليستشعر انتماءه و يلامس هويته.

يقول أهل فن الحكاية أن "الحكايات سحر يحفظ الحياة" ، فالشخص الفاقد لذاكرته لايستطيع الاستدلال على بيته و بالمثل مجتمع فاقد لذاكرته كيف له أن يستدل على هويته، و بما أن الحكاية من شأنها الحفاظ على ذاكرة أجيال كاملة فهي تحافظ على حياة تلك الأجيال.

يحكي الحكواتي ***الصادق لكبير*** و هو أول حكواتي ظهر على شاشة التلفاز الجزائري بحكاية "خنفوس و خنفوسة" أن هذه الحكاية كانت سببا في أحد الأيام لنجاته من بين يدي الموت، إذ كُلف شاب في مُقتبل العمر بإطلاق الرصاص عليه– أيام تصفية كل من يمد للثقافة بصلة– و في لحظة التقاء عيني الجاني بعيني الضحية نطق ذلك الشاب بكل براءة ومن غير تفكير:" االاه خنفوس و خنفوسة" و لم يستطع تنفيذ الحكم، كيف له أن يقتل من صار بحكم القريب فحتى و إن لم تجمعهما رابطة الدم فقد جمعتهما رابطة الذاكرة.

إن ما تحيلنا إليه هذه الرحلة الخاطفة أن هناك علاقة وطيدة و حركة زمنية متبادلة بين الحكاية و الذاكرة فالذاكرة على قيد الحياة مادامت الحكاية على قيد الذاكرة.

قائمة المراجع

المراجع باللغة العربية:

القصراوي، م. (2004). الزمن في الرواية العربية (الطبعة الأولى). *بيروت*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

سي كبير، أ. (2014).الحكاية الشعبية في منطقة ورقلة. *مجلة الأثر*، العدد 19، 125– 137.

عداد، ر. (2006). الأدب الشعبي في منطقة أم البواقي (مذكرة ماجستير في الأدب الشعبي). *الجزائر*، جامعة منتوري قسنطينة.

حمدي، م. (2015). أصول الحكاية الشعبية (مذكرة ماجستير في الأدب الشعبي). *الجزائر*، جامعة حمه لخضر الوادي.

برباش، م. (2012). الحكاية الشعبية في منطقة المسيلة (مذكرة ماجستير في الأدب الجزائري). *الجزائر*، جامعة المسيلة.

المراجع باللغة الأجنبية:

Belamri, R. (1993). Le conteur dans la cité. L'actualité littéraire.

Calame-griaule, G. (1985). Le tissage de la mémoire. In Revue Française de la Psychanalyse, N°4.

Ouled Messaoud Ghemmar, F. (2014). Etude structurale du conte populaire Algérien (Master Lettres et langues étrangères). Alger, kasdi Merbah Ouargla.